

شاعر السموز زهير ابن أبي سلمي للدكتور عبد القادر الرباعي

(جامعة اليرموك / الأردن)

ما زال الشعر الجاهلي يشغل الدارسين والمهتمين يلقتن عموماً «
وذلك لما له من تميز في الإشراق واليساطة مع العمق والشمول - وهو
ككل فن بدائي ممتاز يشكل ، بجدارته الأصول الأولى للثقافة الشعرية العربية
الأصيل كله .

أما أعلامه فيُنظر إليهم على أنهم الفلاسفة الأول الذين ابتكروا
المعاني وشقّقوها بقدرتهم الذهنية وبإخلاصهم في الوصول إلى حلو
مفتحة لمسألة الإنسان والوجود .

زهير واحد من أعلام الشعر الجاهلي بل هو واحد من المبرزين
فيه ، فهو لهذا يستحق اهتماماً مستمراً ودراسة متجددة لأن مثل هذه
الدراسة وذلك الاهتمام قادران على اكتشاف عناصر جديدة تصالف إلى تراث
عذا الشاعر الخالد .

سأتعرض لزهير في الصفحات التالية من زاويتين : الأولى في
أولها زهيراً الإنسان : أصوله وفروعه، ثم سمائه الخلقية والسلوكية،
عنى أساس أن لهذا دوراً كبيراً في تشكيل فكره والاهتمات الشعرية عنده،
كما أدرس في ثابتهما زهيراً الشاعر، بهدف الوقوف على قدراته النفسية
التي جعلته شاعراً متميزاً في خصائصه ومذهبه .

هو زهير بن ابي سُلمى (بضم السين) (١) . واسم ابي سلمى
— والده — ربيعة بن رياح بن قرّة بن الحارث، من بني مزينة (٢) . وأكد
كعب بن زهير نسبه في مزينة بقوله (٣) :

هُمُ الْأَصْلُ مِنِّي حَيْثُ كُنْتُ وَإِنِّي مِنَ الْمَزْنِيِّينَ الْمَصْفِيِّينَ بِالْكَرَمِ

ومزينة احدى قبائل مضر ، فهي منسوبة
— كما يقول ابن الكلبي — الى مزينة بنت كلب بن
وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، التي كانت
عند عمرو بن اد بن طانجة بن مضر بن نزار من معد بن عدنان ؛ ولم تلد
مزينة لعمرو غير عثمان وأوس ، وهذا الأخير هو الجد الاصل لزهير (٤) .

وذكر عن طريق آخر ان مزينة هي ام عمرو ابن اده وليس زوجته (٥) .

اما ابن سلام فيجعل مزينة واحدا من اجداد ربيعة والد زهير (٦) .

وعلى كل حال فزهير مزني النسب، لكنه ولد في بني عبداللهم غطفان،
لان والده كان مع اهل بيته في هؤلاء القوم حتى عرف بهم ونسب اليهم .

١ — البغدادي : خزنة الالب (ط . دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٧) ٢ / ٢٢٢ وورد فيها
انه جاء في الصحاح : « ليس في العرب سُلمى (بضم السين) غيره » .

٢ — الاصفهاني : الاغانى (ط . دار الكتب المصرية) ٢٨٨ / ١ .

٣ — السكري : شرح ديوان كعب بن زهير (ط . دار الكتب المصرية) / ٦٧

٤ — ثعلب : شرح ديوان زهير بن ابي سلمى (ط . دار الكتب المصرية) / ٢٢٠

٥ — الاغانى : ٢٨٨ / ١ .

٦ — الجمي : طبقات فحول الشعراء (ط . دار المعارف . د . ت) / ٢٣

وقد ذهب بعض الباحثين واهماً الى انه منهم (٧) . وكان بعض اهل العلم من غطفان يدعون انه منهم، ويشككون في صحة ادعاء كعب السابق في انه من مزينة (٨) .

أما انضمام ابي سلمى ، والد زهير ، الى بني غطفان وبقاؤه فيهم، فسيبهه — كما تقول اكثر الروايات (٩) — ان ابا سلمى هذا كان قد خرج مع خاله اسعد بن الغدير، وابن خاله كعب، وبعض من بني مرة للاغارة على طيء ، فأصابوا نعماً كثيراً وأموالاً ؛ فرجعوا حتى انتهوا الى أرضهم ، أرض بني مرة ، فطلب ابو سلمى من خاله وابنه ان يفردا له سهماً من الغنيمة ، فأبيا عليه ومنعاه حقه ، فكف عنها حتى اذا كان الليل أكره أمه على الارتحال معه من أرضهم، وقد قال في ذلك :

لتعدون إبلاً مُخَيَّسَةً من عند سعدٍ وابنه كعبٍ
الإكسين صريح قومهما أكل الحباري بُرْعَمَ الرُّطْبِ (١٠)

واتجه الى قبيلته مزينة فلبث فيهم حيناً ، ثم أقبل بمزينة مفيراً على أخواله من بني غطفان . ولما ابتعد المزيون عن ديارهم وأشرنوا على ديار غطفان، تطايروا عنه راجعين، وتركوه وحيداً، فقال معتبراً :

٧ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء (ط . دار المعارف ١٩٦٧) ٨٦/١ وما بعدها .

٨ — طبقات فحول الشعراء / ٩٢ . وورد على لسان نعلب في شرح ديوان زهير ص ٨٦ ان بني عبد الله بن غطفان يقولون، هو منا إلا أنه يكتب ادعاهم ويعده باطلا .

٩ — الاغانى ٢٩١/١٠

١٠ — الحباري : طائر يقع على الذكر والانثى، ويضرب به المثل في البلاهة والحمق يقال (أبلمن الحباري)

من يشتري فرساً لخير غزوها وأبث عشيرة ربها أن تسهلا

ثم أقبل حين رأى ذلك من مزينة حتى دخل في أخواله من بنسي
مرة، وفي بني عبدالله بن غطفان منهم ، وقد كان هؤلاء يسكنون (الحاجر)
في نجد (١١) .

فعلى هذا يكون الغطفانيون أخوالاً لوالد زهير، وليسوا أصولاً له كما
زعم بعض الباحثين. أما أم زهير فكل ما نعرف عنها أنها من غطفان ، من
بني مرة بن سعد بن ذبيان (١٢) ، وأنها أخت أو ابنة أخ للشاعر الجاهلي
الكبير بشامة بن الغدير . وكان زهير يعجب بشعره ويدعوه بالخال (١٣) .
وذكر حماد أن بشامة هذا كان أشعر غطفان في زمانه ، وكان رجلاً
مقعداً حازم الراي كثير المال . ولم يكن له ولد ؛ جمع ثروته من حزم
رايه، إذ كانت غطفان إذا أرادوا الغزو اتوه فأثروه واستشاروه وصدروا عن
رايه ، فإذا انصرفوا قسموا له مثلما يقسمون لأفضلهم ، فلما حضره الموت
جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين أخوته ، فأتاه زهير فقال : يا أخاه ، لو
قسمت لي من مالك ؟ قال : قد والله يا ابن أخت قسمت لك أفضل من ذلك
وأجزله . قال : ما هو ؟ قال : شعري ورثتيه . فمن أين جئت بهذا الشعر؟
لملك ترى أنك جئت به من مزينة ، وقد علمت العرب أن حصاتها وعيين
مائها في الشعر هذا الحي من غطفان . (١٤) والحدث في هذه الرواية — إن

١١ — الألفي : ٣٠٩/١ . وشوقي صيف : العصر الجاهلي (ط . دار المعارف ، الطبعة
السابعة) / ٢٠٠ .

١٢ — وكان أبو سلمى تزوج إلى رجل من بني سهم بن مرة، أو نهر بن مرة، يقال له الغدير .
انظر شرح ديوان زهير / ٥٥ والألفي ٣٩٠/١ .

١٣ — جاء في شرح ديوان زهير ص ٢٢٥ أن بشامة عم لام زهير، لكن صاحب الألفي ينكسر في
ج ٢١٢/١ أنه قال زهير. أما ابن سلام فقد نص في طبقات فحول الشعراء / ٥٦٤ على
أن زهيراً ابن أمه .

١٤ — الألفي ٢١٢/١ وشرح ديوان زهير ٢٢٥ .

كان صحيحا — يدل على تأثير بشامة في زهير، وعلى أن زهيراً كان شاعراً
مُعجباً به، مما دعا بشامة إلى الاعتزاز بأنه امتداده الفني .

ويظهر أن والدة زهير تزوجت بعد وفاة أبيه ؛ فقد ورد في الأخبار
أن أوس بن حجر كان فحل مضر في الشعر، حتى نشأ النابغة وزهير
فأخملاه ، وكان زهير راويته، وكان أوس زوج أم زهير (١٥) .

لم يترك زهير الحاجر في نجد ، أرض أخواله بعد موت والده، بل ظل
فيها هو وأهل بيته الذين لا تعرف منهم سوى أخيه، وكان يدعى أوسا ، وهو
أخوه من أمه الغطفانية (١٦) . وأخته الخنساء التي عاشت إلى ما بعد
موته، حيث نظمت فيه مراثية حزينة معبرة (١٧) .

أما زهير فقد تزوج إلى أخواله ؛ تزوج كبشة بنت عمار بن عدي
ابن سحيم، أحد بني عبد الله بن غطفان، فهي أم ولده (١٨) ؛ ويبدو أنها
كانت الزوجة الثانية بعد (أم أوفى) زوجته الأولى التي أحبها كثيراً ، لكن
الذي دفعه إلى زواج كبشة عقم أم أوفى (١٩) أو أنها ولدت لـه
ومات أولادها جميعاً (٢٠) .

لم يرح هذا الزواج أم أوفى فدبت فيها الغيرة وأذت زهيراً كثيراً، مما
أضطره إلى طلاقها وهو كاره، ثم ندم على ذلك وقال (٢١) :

١٥ — طبقات فحول الشعراء / ٨١ .

١٦ — شرح ديوان زهير / ٥٥ .

١٧ — المصدر السابق / ٣٦٦ .

١٨ — المصدر نفسه ٣٢٦ ، ٣٣٥ .

١٩ — الموجز في الأدب العربي وتاريخه (وضع لجنة من الأساتذة بالاقطار العربية ، دار
المعارف ببلنات ١٩٦٢) ١ / ١٧٩ .

٢٠ — الاغانى ١/٣١٣ والخبر منقول عن ابن الاعرابي .

٢١ — شرح ديوان زهير / ٣٤٢ .

لَعَمْرُكَ وَالْخَطُوبُ مُغَيَّرَاتٌ وفي طول المعاصرة التَّقَالِي

لقد باليت مظعن أم أوفى ولكن أم أوفى ما تبالسي

ومن الطبيعي أن يؤثر استمرار هذا الحب لام أوفى على علاقته بكبشة، زوجته الجديدة . لقد واجهته باحساس المرأة : برمت كثيرا بفتور مشاعره نحوها فعاتبته عتابا مرًا، ذكرته فيه بواجب الزوج تجاه امراته التي تخلص لبيتها وتقوم بواجبها ، أمًا وزوجة ؛ وهذا واضح في أبياته التالية (٢٢) :

وقالت أم كعب لا تزرننا فلا والله ما لك من مزار

رايتك عبتني وصددت عني فكيف رايت عرضي واصطباري

فلم أفسد بفيك ولتم أقرب إليك من الملمات الكبار

ويدافع عن نفسه بجواب مقتضب حمله بيته :

اقيمي أم كعب واستقرّي فإنتك ما نزلت بها بداري

لقد أكد لها أن الذي يحكم معاملته لها هو شعور الزوج الذي يستشعر مسؤوليته بضرورة العمل على توفير الأمان لزوجته ما دامت في داره تقوم بمهامها جيدا .

أما مسألة الحب فليس لها أن تكلفه بها ، ذلك لأن الحب لا يفرض على الإنسان فرضا . ولعل موقف زهير هذا يعكس لنا مفهوم الناس في عصره للزواج والحب على حد سواء ؛ فليس الزواج لتحقيق عاطفة الحب دائما، وإنما الزواج في كثير من حالاته للانجاب والعناية بشؤون الحياة العائلية والمنزلية فحسب .

وعلى أية حال فقد أنجبت له كبشة هذه ثلاثة أبناء ذكورا، هم كعب

وبجير وسالم (٢٣)؟ أما سالم فمات في حادث شؤم ينقله الرواة على النحو التالي : كان سالم هذا جميل الوجه حسن الشعر، فأهدى اليه رجل بُردين، فلبسهما وركب فرسا خياراً، فمَرَّ بامرأة من العرب في مكان ماء يقال له النَّتَاءُ، فنقالت : ما رأيت كاليوم قط رجلاً ولا بردين ولا فرسا أحسن مما أرى ، فما مضى قليلاً حتى عثر به الفرس، فاندقت عنقه، وانشق بُرداه، وكُسرت عنق فرسه ؛ فقال زهير يرثيه ويشير الى الحادثة :

رأت رجلاً لأمي من العيش غبطةً واخطأه فيها الامور العظائمُ
 وشبَّ له فيها بُنُونٌ وتوبعت سلامة أعوامٍ له وغنائمُ
 وعندى من الأيام ما ليس عنده نقلتُ لها مهلاً فإنيك حالمُ
 لعلك يوماً أن تُراعي بفاجعٍ كما راغني يوم النَّتَاءِ سالمُ (٢٤)

إن في الأبيات تذكيراً بأن السرور لا يدوم ، وبأن على الانسان دائماً أن يتهدأ لاستقبال الفواجع لان الدنيا في تقلب مستمر . ونحن على اية حال لا ندري مدى الصدق في قصة مقتل سالم، لكن الثابت لدينا أن زهيراً فجع بابنه هذا فجيعة عظيمة، جعلته يقف في الأبيات السابقة عند حالين متناقضين : حال من مُدَّت له الدنيا جبل السلامة والغنى ، وحال من بُلِّغته بالمصائب ونجمته بأبنائه ، فالشعور بالاسى العميق كان حتما وراء ابراز تناقض الدنيا السحيق .

أما ولداه كعب وبجير فلحقا الاسلام واسلما ، اسلم بجير اولا وتبع كعبه بل قال ابياتا يؤنب فيها بجيرا على اسلامه، ويعرّض بالاسلام والرسول . قال (٢٥) :

٢٣ - العباسي : معاهد التنصيص (المطبعة البيبة ١٣١٦ هـ) ١١٠/٢

٢٤ - الاغاني : ٢١٢/١٠ وما بعدها لم شرح ديوان زهير / ٢١١

٢٥ - شرح ديوان كعب بن زهير / ٢ وما بعدها و (وئيب) كوكيل ، تقول وئيبك وئيبك .

الا ابلغن عنِّي بجزراً رسالةً فهل لك فيما قلت بالخيف هل لك
 سُتيت بكاس عند آل محمدٍ فانهلك المأمون منها وعلما
 وخالفت اسباب الهدى وتبعته على اي شيء ويب غيرك ذلكا

فبلغ رسول الله شعره. هذا فتوعده ونذر دمه، فكتب إليه أخوه بجزر
 يحذره ويدعوه الى القدوم على الرسول وعلان التوبة والاسلام ، وطمانه
 بأن محمدا عليه السلام لا يقتل احدا جاءه تائبا . ففعل ذلك كعيب وقسال
 قصيدة جليلة القاها بين يدي الرسول الكريم ، فقبل توبته وعفا عنه، وكساه
 بردا اشتراه منه معاوية بعشرين الف درهم .

هذا وتذكر بعض المصادر ان اسلام كعب قد اعلن بعد بعثة الرسول
 مباشرة بذلك تحقيقا لوصية والده قبل وفاته، وهي تورد على هذا روايتين :

احدهما ان زهيرا رأى في منامه وفي اواخر عمره ، ان آتيا اتاه فحمله
 الى السماء حتى كاد يمسكها بيده، ثم تركه فهوى الى الأرض . فلما حضره
 الموت قصّ رؤياه على ولده كعب ثم قال : إني لا أشك انه كائن من خبر
 السماء بعدي ، فان كان فتمسكوا به وسارعوا اليه . ثم توفي قبل المبعث
 بسنة ؛ فلما بعث رسول الله خرج اليه ولده كعب بقصيدته (بانث سعاد)
 واسلم (٢٦) . وثانيتها ان زهيرا رأى في منامه ان سببا تدلى من السماء
 الى الأرض وكان الناس يمسكونه ، وكلما أراد ان يمسكه تقلص عنه؛ فأوله
 نبي آخر الزمان ، فانه واسطة بين الله والناس ، وان مدته لا تصل الى
 زمن مبعثه ، فأوصى بنيه ان يؤمنوا به (٢٧) . واعتقد ان هاتين الروايتين
 موضوعتان، وان الخبر الاول المشفوع بأبيات شعرية لجزير هو اقرب الى
 التصديق منهما . والذي يدفعني لهذا الاعتقاد ، الامتناع الواضح للرؤية

٢٦ - خزنة الادب ٢ / ٢٢٥ .

٢٧ - المصدر السابق ٢ / ٢٢٦ .

من أجل التدليل على تنبؤ بعض الناس بالنبوة قبل وقوعها • ولربما استفاد واضعها من التقوى التي عرف بها زهير في الجاهلية كما سيأتي .

ومن أخبار زهير أيضا أن كانت له ابنة اسمها (وبرة) وأنها كانت

شاعرة، فعندما قال زهير :

إرادت جوازاً بالرئيسين فصداها رجالاً قعوداً في الدجى بالمعابيل
كان مدهدى حنظلٍ حيث سوفت باعطائها من جرّها بالجحافل

فقال زهير من يجيز هذا ؟ فقالت وبرة : يا ابناه أنا أجيزه، وانشدت :

جدودٌ قلت بالصيف عنها جاشها فقد غرزت أطباؤها كالمكاجل (٢٨)

٢ -

ترسم لنا الأخبار وشعر الشاعر صورة جميلة لزهير ؛ فهو من نفر الذين كانوا يحاسبون أنفسهم كثيراً ليقتربوا من الخير، ويتعدوا عن الشر؛ ولهذا استقام خلقه ، وباعد بينه وبين الموبقات، كالخمر والميسر والازلام (٢٩) .

لقد تساوت نفسه وابتعدت عن تدني المجتمع الجاهلي وتساقطه في الحضيض ؛ وبذلك اقترب من الايمان • وفي شعره أبيات تشير الى انه كان قريباً من الايمان حقاً فهو - مثلاً - يؤمن بأن هناك إلهاً يتدبر الكون ويحاسب على الأعمال، قال (٣٠) :

والمال ما خبّول الإله فلا بدّ له ان يحوزة قدر
والإثم من شرّ ما يُصَالُ به والبرُّ كالقيثِ نبتُهُ أبرُّ

٢٨ - شرح ديوان زهير / ٢٤٥ .

٢٩ - جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة ببغداد ١٩٧٦) ٦٧١/٤ .

٣٠ - شرح ديوان زهير / ٢١٤ .

وهو — كما يبدو في شعره أيضا — يؤمن بالحساب والمقاب ، وبأن
اعمال الانسان مرصودة ومحفوظة بكتاب مدخور (٣١) :

يُؤخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ مَيِّدْخَرٍ لِيَوْمِ حِسَابٍ أَوْ يُعَجَّلُ فَيُنْقَمِ

لقد كان ذا خلق جميل، مشدود برباط الايمان دائما؛ ذلك لانه يرى ان
الانسان قادر على اكتساب خلق حميد اذا ما سعى للتعلق بالخير الذي
يريده الاله ان يعم الكون والناس (٣٢) :

عَوَّدَتْ قَوْمَكَ ، إِنَّ كُلَّ مُبَرِّزٍ مَهْمَا يُعَوِّدُ شَيْمَةً يَتَعَوِّدُ
حَزْمًا وَبِرًّا لِلَّهِ وَشَيْمَةً تَغْفُو عَلَى خُلُقِ الْمَسِيءِ الْمُنْفِيءِ

وقد بلغ من ايمانه انه خشي عقوبة الله لانه هجا بني عليم بن خباب
بدون حق، وكان يقول : « ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خفت أن يصيبني الله
بعقوبة لهجائي قوما ظلمتهم (٣٣) » . ولقد اعتقد بعض الباحثين أنه كان
خاضعا لتأثير النصرانية، كما عده بعضهم نصرانيا؛ لكن يبدو أن الرأي الذي ذهب
اليه بروكلمان صواب ، فهو يعتقد بأن تأثير النصرانية كان واقعا في الجزيرة
العربية؛ لكننا لا يجوز لهذا أن نعد زهيرا من النصارى * (٣٤). وكان عادلا
يحب العدل ، ويدعو دائما الى اعادة الامور لنصاب الحق؛ ولهذا بارك عمل
كل من هرم بن سنان والحارث بن عوف؛ اللذين تحملا ديات القتلى ، وأصلحا
بين الحيين المتخاصمين : عبس وذبيان، بعد حرب دامت اربعين عاما .

يَمِينًا لِنِعْمِ السَّيِّدَانِ وَوَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُهْرَمٍ

٢١ — المصدر السابق / ١٨ .

٢٢ — المصدر نفسه / ٢٧٧ .

٢٣ — الاغانى ١٠ / ٢٠٩ وشرح ديوان زهير / ٥٦ .

٢٤ — كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي (ط . دار المعارف بمصر د . ت) ١ / ٩٥ .

تَدَارَكْتُمَا عِيسَىٰ وَذُبْيَانَ بَعْدَهُمَا تَفَانَوْا وَدَقُّوْا بَيْنَهُمْ عَطْرَ مَنْشَمٍ (٣٥)

ورأيه في تلك الديات أنها أخذت بغير حق بلان الذي تحمّل دفعها لا ذنب له سوى حبه ان يسود الصفاء بدل الشر :

لَعْمُرِكَ مَا جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِمَاحُهُمْ دَمَ ابْنِ نَهْيِكَ أَوْ قَتِيلِ الْمَثَلِمِ
فَكَلاَ أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْتَلُونَهُ عِلَالَةَ الْفِي بَعْدَ الْفِي مِصْتَمِ

تَسَاقُ إِلَى قَسُومٍ لِقَوْمٍ غَرَامَةٌ صَحِيحَاتِ مَالٍ طَالَعَاتٍ لِخُرْمٍ (٣٦)

إنه يستغل هذه الحادثة غير المنطقية لبحث المجتمع على رؤية الخطأ في نظامه الاجتماعي؛ فلو كان العدل هو الذي يسره لما احتاج الى ان يقبل هذا الامر الغريب .

إن مطلب العدالة ربما نما مع الشاعر، خاصة وأن أخواله كانوا قد ظلموا والده ظلما دفعه الى تصرفات حادة جداً كما مر بنا سابقا . وانني اعتقد أن حادثة والده التي كانت السبب المباشر في توطئه بأرض أخواله الى الابد ، كانت مؤثرة جدا في نفسية زهير وفكره وسلوكه ، ولهذا أصبح السلام والعدالة مطلبه الأساسي في الحياة والوجود الانساني كله .

ولهذا كان اليغا جدا لمن عرفهم واختلط بهم، مهما كانت مستوياتهم الاجتماعية ، وعلى أية صفة كانت علاقتهم به ، والمثل الرائع الذي يستأهل التوقف هنا قصته مع راعيه (يسار) : كان الحارث ابن ورقاء الصيداوي، من بني أسد، اغار على بني عبد الله بن غطفان، فنغم فاستاق ابل زهير وراعيه يسارا (٣٧) مما دفع زهيراً أن يجاهد طويلاً لاسترداد راعيه، حيث

٢٥ - شرح ديوان زهير / ١٤ ومنشتم امرأة تبيع المعطور وقيل : من التثنيم في الشر .

٢٦ - المصدر السابق / ٢٥ وما بعدها . العلالة : الزيادة هنا . مصنم : تام . المخرم : التنية في الجبل .

٢٧ - الاغني / ١ - ٢٠٧ - ٢٠٩ .

قال قصيدة يهجو بها الحارث بن ورقاء وقومه، ويهدده بغيرها ان لم يعد
يسارا سالما، ومطلع القصيدة (٣٨) :

تَعْلَمُ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ حَيٌّ يُنَادِي فِي شِعَارِهِمْ يَسَارُ

ويبدو ان الحارث قد تأثر بأقوال زهير فعزم على اعادة يسار ، لكن
قومه نهوه وحالوا بينه وبين رغبته، فبعث زهير فيهم قصيدة يهجوهم
ويمدح الحارث ويشجعه، ويهيب به ان لا يستمع اليهم . ويبدو أنه نجح
في ذلك كما يقول (٣٩) :

ابْلِغْ لَدَيْكَ بَنِي الصَّيْدَاءِ كُلَّهُمْ أَنَّ يَسَارًا أَتَانَا غَيْرَ مَقُولِ

وَلَا مَهَانَ وَلَكِنْ عِنْدَ ذِي كَرَمٍ وَفِي حِبَالٍ وَفِي الْمَهْدِ مَأْمُولِ

من الملاحظ في هذه القصائد ان زهيراً لم ينشد استرداد شيء من
أمواله ، لكنه كان شديد الحرص على ان يعود اليه (يسار) فقط ؛ وهذا
يدل على الالفة المتأصلة في طبع هذا الرجل، وعلى الوفاء الذي فطر عليه
ايضا . فيسار مجرد راع بسيط، لكن اختلاطه بزهير ولد في ذات الشاعر
مشاعر جميلة خاصة، ومالاً بدافع منها حتى يسترد راعيه المخلص .

هذا وفضلا عن وفائه السابق الذكر لهم، مدحه لاهله (٤٠) تحقيقا
لهذا الوفاء ، عرف عنه شدة وفائه لزوجته (أم أوفى) ؛ فلقد ظل يذكرها
بأحسن ما تذكر به انثى بالرغم من نشوزها وانفصالها عنه ؛ وقد أدى به
هذا الوفاء الى مواقف صعبة مع زوجته الجديدة ، لكنه في علاقته بهذه
المرأة الجديدة أثبت ايضا انه رجل طبع على الالفة وحسن المعشر، فحين عاتبته

٢٨ - شرح ديوان زهير / ٢٠٠ .

٢٩ - المصدر السابق / ٢٠٨ .

٤٠ - انظر مجله لسنان والد زهير في ديوانه / ١٩٢ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٦ ورتاده

اباه / ٢٢٤ .

على استمرار تعلقه بأى أوفى - زوجته القديمة - لم ينكر ذلك، بل ذهب في صراحته الى حد أن عرفها موقعها منه، فهي ليست أكثر من امرأة تزوجها للانجاب ، وهو معها يقوم بواجبات الزوج على اكمل وجه، كما مر بنا سابقا .

وكان زهير متعففا، يترفع عن الماديات في علاقاته دائما ؛ فقد ظهر ذلك جليا في تعامله مع ممدوحيه، وخاصة هرما ؛ فلقد أكثر زهير من مدحه حتى حلف هرم ألا يمدحه زهير إلا اعطاه، ولا يسأله إلا اعطاه، ولا يسلم عليه إلا اعطاه عبدا او وليدة او فرسا ؛ فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ، وكان اذا مر به في ملاقاة قال : « عموا صباحا غير هرم وخيركم استثنيت (٤١) » .

والى جانب هذا كان زهير سيدا كثير المال ؛ فقد اغناه هرم ثم آل اليه نصيب من مال خاله بشامة بن الغدير، كما يذكر صاحب الاغانى (٤٢) ؛ وكان كريما يصرف ماله فيما يراه واجبا . روي ان زيد الخيل بن المهلهل الطائي تمكن من تجر فأخذه وهو لا يعرفه، ولما عرف انه ابن زهير حمله على ناقته وخطى سبيله، فأتى بجير أباه فأخبره خبر زيد وما فعله ، فأرسل زهير بفرس كعيت كان لكعب من كرام الخيل الى زيد ، وكان كعب غائبا فلما جاء انكر على والده ذلك وقال : كأنك أردت ان تقوي زيدا على قتال غطفان، فنقال زهير : هذه إيلي فخذ ثمن فرسك وازدد عليه ؛ وقد عنفت كعبا زوجته فقالت : اما استحييت من ابيك في سنه وشرفه ان ترد هبته ؟ وقد اثر هذا الموقف في زيد الخيل فقال :

فلولا زهير أن أكَدَّر نِعْمَةً لِقارعت كعباً ما بقيت وما بقي (٤٣)

٤١ - معاهد التصبى ١١٠/٢ .

٤٢ - الاغانى ١٠/٢١٢ .

٤٣ - ابو علي القاسم : نيل الاماني (طبعة مصطفى اسماعيل يوسف بن دياب ، الطبعة الثالثة) / ٥٢ وما بعدها . وشرح ديوان كعب بن زهير / ١٢٦ وما بعدها .

ويقال ان زهيرا مات قبل البعثة بقليل، ويحدّد بعضهم وفاته فيجعلها قبل البعثة بسنة واحدة (٤٤) ، اما بروكلمان فيقول : ان « الراجح انسه مات قبل ظهور النبي بزمان طويل (٤٥) » وهناك رواية تجعل وفاته بعد البعثة، وتزعم ان الرسول عليه السلام مرّ به وهو شيخ فقال : اللهم أعذني من شيطانه (٤٦) ؛ وهي رواية مشكوك فيها على اية حال . هذا وقد رثته اخته الخنساء بأبيات جيدة تقول فيها (٤٧) :

فلا يفني توقّي المرء شيئا ولا عقْدُ التميم ولا الغضارُ
 اذا لاقى منيته فأمسى يساق به وقد حُقَّ الحذارُ
 ولاقاه من الايام يوماً كما من قبل لم يخلد قدارُ
 وهكذا انتهت حياة شاعر عاش للخير، واتخذ من شعره اداة لنشره وتمكينه في مجتمع كثر فيه الجهل والظلم والشر .

/ - ٣ -

لزهير ديوان شعر طبع عدة طبعات (٤٨) ، ولعل اجودها طبعة دار الكتب التي اعتمدت على رواية ثعلب، وهي الطبعة التي اعتمدها في دراستي

٤٤ - شرح ديوان زهير / ٥٦ وخزانة الادب ٢/ ٣٣٥ .

٤٥ - تاريخ الادب العربي ١/ ٩٥ وانظر ايضا تاريخ الادب العربي لتالينسو (ط . دار المعارف بمصر / ٧٨ .

٤٦ - معاهد التنصيص ٢/ ١١٠ .

٤٧ - السيوطي : شرح شواهد المغني (دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٦) ١/ ١٢٤ ، والمضار : كان احدهم اذا خشي على نفسه علق عليه خرقة اخضر .

٤٨ - انظر مقدمة ديوان زهير / ٢٠ - ٤٤ . وكتاب لسان القص : زهير بن ابي سلمى .

على الرغم من أن قضية الحرب والسلام أخذت القسطنطين الأكبر من اهتمام الشاعر، فنظم فيها شعراً كثيراً مثلته قصائده المدحية، إلا أن شعره يحوي أيضاً أغراضاً أخرى كالرثاء والغزل والهجاء والفخر والحكمة . هذا بالإضافة إلى أن شعره يحوي عناصر مختلفة من معارف عصره ومعاله ؛ فشعره مثلاً من أكثر الأشعار الجاهلية اهتماماً بالكتابة ، لقد كررها أكثر من مرة وبخاصة في مقدماته الطللية؛ مثال ذلك قوله (٤٩) :

لن الديار غشيتها بالفدند
كالوحي في حجر المسيل المخلد

زهير في شعره يشغل بقضايا إنسانية بالغة الدقة والخطورة في مجتمع جاهلي بدائي، كانت تسوده - إلى حد كبير - شريعة باغية قاسية ؛ لذا احتاجت من الشاعر قدراً كبيراً من التجرد والتفكير لوضعها وضعا مؤثراً . فالشاعر متالم جداً للأوضاع السيئة التي ينحدر إليها مجتمعه ؛ وقد تمثل تأله^٢ هذا بصور شعرية توحى بأن طريق الخلاص هي السير مع حس السلام الذي بدأ يتخذ جانبا إيجابيا فاعلا ، ومع كل ما من شأنه ترسيخ قيم أو مثل عليا فوق الأرض . ومن هنا التقى كلام الشاعر في

... (دار الفكر بدمشق ١٩٧٢) ١١٩ وقد عثرت على نص في خزانة الأدب ٢ / ٢٢٤ يشير

إلى ديوان زهير وشروحه . قال البغدادي (وديوان شعر زهير كبير وعليه شرحان ،

وهما عندي واحمد لله والله ، احدهما بخط مهمل الشهر الخطاط صاحب الخط

النسوب) ولم يذكر في مخطوطات الديوان المكتشفة ما يشير إلى هذه النسخة .

دعوته الإصلاحية مع الخُلق الإسلامي الذي جاء بعيد موته . قيل : أنشد
عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قوله في هرم :

أثني عليك بما علمت وما أسلفت في النجدات من ذكر
والستر دون الفاحشات ولا يلتصاك دون الخير من ستر

فقال عمر : ذلك رسول الله (٥٠) . وكلام عمر هذا هو من نوع كلامه
حين سأل بعض ولد هرم أن ينشده بعض مدح زهير في أبيه ، فلما أنشده
ما طلب قال : إن كان ليحسن فيكم القول . قال : ونحن والله ان كنا لنحسن
له العطاء ، فقال : تد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم (٥١) .

ومن هنا قال عبد الملك بن مروان: ما يضر من مدح بما مدح زهير آل
أبي حارثة من قوله :

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السباحة والبيدُ
الأيمك أمور الناس (٥٢) (يعني الخلافة) .

ان المعاني التي عاشت وقدرت هذا التقدير في العصور اللاحقة المعان
انسانية كثيفة وان بدت بسيطة مكشوفة ؟ فلا عجب اذن ان تلتقي بعض
معاني شعره مع بعض الآيات القرآنية الكريمة . لقد لاحظ بعضهم موضع
التقاء قوله :

ومن هاب اسباب المنايا ينلنسه ولو رام اسباب السماء بسلم
مع فحوى الآية الكريمة « أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج

٥٠ - الاثني ٣٠٤/١٠ .

٥١ - المصدر السابق ٣٠٥/١٠ ويقال ان عمر قال ايضا (ولكن الحلال التي كساها أبوك
هرما لم يبلها الدهر) .

٥٢ - المصدر نفسه ٣٠٦/١٠ .

مشيدة (٥٣) «والاحظ التقاء قوله :

فان الحسق مطعمه ثلاث؛ يمين أو نفاز أو جلاء

فذلكم مقاطع كل حـق ثلاث كلهن لكم شفاء (٥٤)

بالبعد الاجتماعي والانساني الذي عليه القول الالهي : « ولكم نسي القصاص حياة ». ولربما كان هذا وراء قول ابن قتيبة : « وكان زهير يتاله ويتعنف في شعره ويبدل شعره على ايمانه بالبعث » (٥٥) .

ويبدو أن اتجاهه الخلفي كان وراء تفضيل كثير من الناس له . لقد فضل على الشعراء لانه — كما قيل — : « كان ابعدهم من سخف واشردهم اجتنابا لحوشي الكلام (٥٦) » .

والواقع أن زهيراً كان شاعراً فذاً ، فلقد فهم بخبرته وذكائه قضايا الانسان والوجود ، وعبر عنها تعبيرا أدبيا اكسبها سمة البقاء ، وهذا ما جعله قائما في عقول الناس على مر العصور .

وشاعريته أصيلة عريقة تمتد في جذورها وفروعها بشكل جعلها متميزة في تاريخ الشعر العربي القديم . قال ابن الأعرابي : « كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره ، كان أبوه شاعرا ، وهو شاعر ، وخاله شاعر ، واخته سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعران ، واخته الخنساء شاعرة (٥٧) » . وقد ذكر أيضا أن عقبه بن كعب بن زهير المعروف بالمضرب

٥٢ — ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي (دار المعارف بـبصر ١٩٥٦) ٤٠٦ ، والاية في النساء / ٧٨ .

٥٤ — شرح ديوان زهير / ٧٥ . والاية من البقرة / ١٧٩ .

٥٥ — خزنة الادب / ٢ / ٢٢٢ .

٥٦ — المرزباني : الموشح (دار نهضة مصر ١٩٦٥) ٩٥ .

٥٧ — شرح شواهد المغني ١٢٢/١ ومعاهد التصحيح ١١٠/٢ .

كان شاعرا ، وأنه كان لعقبة هذا ابن يقال له العوام، وكان شاعرا —
أيضا (٥٨) .

لقد اجتمعت لزهير عناصر وراثية في الشعر أعطته استعدادا نظريا
لقوله ؛ ويبدو أنه أحسّ مثل هذا الاستعداد مبكرا ، فأخذ نفسه به وعوّل
على تأصيله وتهذيبه حتى غدا شاعرا مذكورا . لقد وضعه ابن سلام في
الطبقة الأولى، تاليا لامرئ القيس والنابغة (٥٩) .

أما أبو الفرج فقد ذكر أن الرواة لم يتفقوا على تفضيل أي من امرئ
القيس أو النابغة عليه ؛ قال : « هو أحد الثلاثة المتقدمين على سائر
الشعراء ، وإنما اختلف في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه ؛ فأما الثلاثة فلا
اختلاف فيهم ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة الذبياني (٦٠) » .

وفي التراث النقدي ما يؤيد قول أبي الفرج ؛ فقد جاء في طبقات ابن
سلام نفسه أن أهل النظر قالوا : « كان زهير أحصنهم شعرا . . . وأجمعهم
لكثير من المعنى في قليل من المنطق (٦١) » .

وقد نسب صاحب خزانة الأدب إلى ثعلب تقديم زهير ، كما أورد
محاورة بين جرير وابنه عكرمة مؤداها: أن جريرا كان يقدّم زهيراً ويجعله
أشمر الجاهليين (٦٢) . وممن كان يقدّمه أيضا قدامة بن موسى الجمحي ،
الذي كان — كما يقول ابن سلام — من أهل العلم (٦٣) . وكان كل من عمر

٥٨ — الاغانى ٢١٤/١٠ وخزانة الاب ٢٢٢/٢ .

٥٩ — طبقات فحول الشعراء / ٩٣ .

٦٠ — الاغانى ٢٨٨/١٠ .

٦١ — طبقات فحول الشعراء / ٥٢ والنمالي : خاص الخاص (دار مكتبة الحياة ببيروت
١٩٦٦) ٩٦ .

٦٢ — خزانة الاب ٢٢٢/٢ .

٦٣ — الاغانى ٢٨٩/١٠ .

ابن الخطاب ومعاوية يسميه بشاعر الشعراء أو أشعر الشعراء (٦٤). وقد زعم حماد أنه لم يدرك أحدا من أهل العلم من قريش يفضل على زهير من الناس أحدا في الشعرة لكنه يقول: غير أن قريشا قد اتفقوا على تفضيل زهير والنابغة معا (٦٥). وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول: « كان أوس فخل مضر ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخلاه (٦٦) » . وسجل بعض النقاد القدامى أحكاما نقدية توازن بين زهير وغيره على أساس الدوافع النفسية التي اشتبهوا بها، فقليل: « كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركسب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والاعشى إذا طرب (٦٧) » .

والنقد الحديث لا يأخذ بهذه الآراء المطلقة لأنه يدرك اختلاف الشعر والشعراء من حال الى حال ؛ فالمسألة كلها ترتبط بقضايا دقيقة في الشاعر ذاته، وفي الموضوع الذي يتناوله، والجو العام الذي يقال فيه الشعر . ولكن تظل الأقوال التي فاضلت بين زهير وغيره على أساس من الضوابط النفسية خاصة أقرب الى الاحتمال والتقبل من تلك التي اعتمدت التعميم أسلوبيا في أحكامها .

وعلى مستوى الصنعة الشعرية يصادفنا الرأي المنسوب الى عمر ابن الخطاب في تفضيل زهير، حيث قال: « كان لا يعاظم في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الشعر ، ولم يمدح أحدا الا بما فيه (٦٨) » . لقد اعجب به لأن شعره مستو، وفصيح اللفظ، وناطق بالصدق الحقيقي عن مجريات الأحداث وأوصاف الناس . ان هذا النقد — بالرغم من ان نظريات الشعر

٦٤ — شرح شواهد المغني ١ / ١٢١ .

٦٥ — شرح ديوان زهير / ٨٦ ، ٢٢٦ .

٦٦ — طبقات، فحول الشعراء / ٨١ .

٦٧ — المسكري : كتاب الصناعتين (عيسى الباهي الحظي بالقاهرة ١٩٥٢) ٢٢ .

٦٨ — الاغانى ١ / ٢٨٩ ومعاهد التنصيص ٢ / ١٠٩ .

الحديثة قد تجاوزته بكثير — يظل نقدا يقدم أوليات أساسية في الحكم
النقدي المعلن .

وقد لاحظ الأقدمون تأثر زهير في الصنعة بطريقتة أوس بن حجر —
وكان زهير راوية له — وهي قائمة على البروز الحسي، والاستقصاء للصور
وتفصيلاتها (٦٩) . وعرف عن زهير أنه صاحب مذهب التحكيك الشعري
في العصر الجاهلي ، إذ به عدّ واحدا من الذين أطلق عليهم الأصمعي «عبيد
الشعر» . (٧٠) قيل إنه كان ينظم القصيدة في ليلة أو شهر، ثم يتركها عنده
عاما كاملا لا يذيعها في الناس إلا بعد أن يعاود فيها النظر مرات عديدة .
ولهذا سميت قصائده بالحوليات أو المقلدات والمنقحات (٧١) . وحتى نحكم
حكما مقنعا على عمل زهير هذا، لا بد لنا من الإجابة عن مسألة هامة في
المعرفة النقدية : هل الشعر ابن الملكة الشعرية وحدها، أم ابن الصنعة
الحاذقة فقط ، أم ابنتها معا ؟

ان الاجابات العصرية لاتميل الى فصل الصنعة عن الموهبة ، وهي
تعدّهما أساسا متحدا لكل فن ناجح، وبهذا يكون زهير واحدا من الذين وعوا
باكرا دورهم الشعري الريادي، لذلك جاء شعره ناضجا متقنا ، ولقد لاقى
قدرا كبيرا من الاعجاب في عصره وبعد عصره . ان الأساس الفني لمذهبه
اهتمامه كثيرا بالصور الكثيفة التي قادت الى خلق الترابط العضوي في
القصيدة الواحدة، لأنها تشيع معاني عميقة شديدة التشابك والترابط .

٦٩ — شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ط . دار المعارف بمصر الطبعة
الرابعة / ٢٨) وما بعدها .

٧٠ — الشعر والشعراء / ٢٢١ .

٧١ — الجاحظ : البيان والتبيين (عبد السلام هارون ١٩٢٨) ٩/٢ ومعاهد التنصيص
١١١/٢ وفزارة الابن ٢/٢٣٥ . وابن جنسي : الخصائص (ط . الهلال ١٩١٢)
٢٢٠/١ .

ان مثل هذه المعاني تؤدي بتفاعلها وتجاوبها وتجاذبها الى الكشف عن الرموز والايحاءات التي تؤلف الوحدة المعنوية الباطنية للتصيدة : فرصدنا لحركات النفس داخل التصيدة الواحدة يقودنا الى الوقوف على قضايا انسانية بعيدة بعدا جذريا عن الموضوعات الظاهرية التي نتحدث عنها . . وهذه هي القيمة المتوقعة لكل ترابط صوري كهذا الذي يشيعه زهير باتقان نادر .

بهذا تغدو الاموال التي اتهمت معلقته كما اتهمت غيرها من المعلقات بالتفكك (٧٢) ، اقوالا قاصرة) عاجزة عن الرؤية الشمولية التي تعتمد اكتشاف الحقيقة من خلال حل العقد والتداخل الشعري العجيب .

ولكن الرواة والنقاد اخذوا على زهير عدة مأخذ في شعره، تنحصر في مجالات اللغة والسرقات والفن وغاياته بشكل عام :

ومن مأخذهم اللغوية استبشاعهم كلمة (حقلد) في بيته (٧٣) :

تَمِي نَقِيٌّ لَمْ يُكْتَرِ غَنِيمِبَةَ بِنَهْكَةِ ذِي الْقُرْبَى وَلَا بِحَقْلَدٍ

ومنها انكارهم عليه قوله (رك) في بيته :

ثُمَّ اسْتَمَرُوا وَقَالُوا إِنَّ مَوْعِدَكُمْ مَاءٌ بِشَرْقِيٍّ سَلْمَى فَيْدٌ أَوْ رُكَّكُ

لانه حكى بعض الاعراب انه قال : إنما هو « رك » (٧٤) . ولست أرى وجها لهذه المأخذ . (حقلد) كلمة عربية مستعملة قد تكون ثقيلة على اللسان، لكنها في موضعها في البيت أدت ما أراد الشاعر ؛ أما (رك) فنقلها

٧٢ - الموجز في الادب وتاريخه ١ / ١٨٥ .

٧٣ - كتاب الصناعتين / ٣٠ والبيت في الديوان / ٢٢٤ والحقلد : الضيق البخل ، والسبيء الخلق .

٧٤ - الموشح / ٦١ وحكى عن بعض الاعراب انه قال : إنما هو (رك) والبيت في الديوان / ١٦٧ .

هو الذي دفع الشاعر الى فك ادغامها . والشاعر — على أية حال —
اطمأن على وضع كل كلمة في موضعها من شعره ، لذا فإن اي مأخذ لا يكون
بافراد الكلمة ومحاسنته على جمالها او قبحها منزلة ، وانما في موضعها
من القصيدة. وهذا مبدأ غير الذي حوكم على اساسه زهير كما هو واضح .

واما في نحل الشعر فقد روي ان الأصمعي كان « يرى أن ابیاتاً من قصيدة
زهير الميمية (أمن أم أوفى . . .) ليست له ، وانما هي لصرمة بن أنس
الأنصاري (٧٥) » . واتهم أيضا بالاغارة على شعر غيره من الشعراء؛ فقد
جاء على لسان أبي عبيدة قوله : كان قراد بن حنث من شعراء غطفان
وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه
وتدعيه ، منهم زهير بن أبي سلمى ادعى المقطوعة التي مطلعها :

إِنَّ الرِّزِيَّةَ لَا رِزِيَّةَ مِثْلَهَا مَا تَبْتَفِي غُطْفَانَ يَوْمَ أَضَلَّتْ (٧٦)

والمقطوعة في ديوان الشاعر ، وقد ذكر انهافي رثاء سنان ابن أبي
خارجة مع زيادة بيت على الأبيات التي رواها أبو عبيدة وهو :

وَمُلَعِنٌ ذَاقَ الْهَوَانَ مَدْمَعٍ رَاخَيْتَ عَقْدَةَ كِبْلِهِ فَانْحَلَّتْ (٧٧)

ومع تقديم وتأخير في الأبيات ، ثم مع اختلاف في رواية بعض الالفاظ
والعبارات .

/ وهذا امر يرتد الى مسألة النحل والانتحال في الشعر الجاهلي . ومن
الصعب ان يجزم الانسان فيها براى وتظل خاضعة للفرض والتخمين .
على ان مما يضعف احتمالات كون الأبيات لقراد ان أحدا لم يقل بذلك سوى

٧٥ — مصادر الشعر الجاهلي ٢٢٨ عن كتاب المعمرين / ٦٦ . وهناك قصيدة اخرى منسوبة

للأنصاري في ديوان زهير / ٢٨٤ .

٧٦ — المرزباني / معجم الشعراء (عيسى البابي الطلي . ١٩٦٠) ٢٠٥ .

٧٧ — شرح ديوان زهير / ٣٢٤ .

أبي عبيدة، وأن الأبيات في الديوان مزيدة ومختلفة بعض الاختلاف، ومقرونة عند زهير بمناسبة ؛ ولم ترد أية إشارة من ثعلب ، شارح الديوان ، تشير الى اتهامها على غير عادته .

أما في مجال السرقة الشعرية فيذكر الرواة أن زهيراً أخذ أبياتاً ممن سبقه أو عاصره من الشعراء، من ذلك — مثلاً — قول امرئ القيس (٧٨) :

فَلأَيًّا بَلأَيِّ ما حَمَلنا غلامنا على ظَهرِ محبوبِكَ السَراةِ مُحَبَّبُ

أخذه زهير فقال :

فَلأَيًّا بَلأَيِّ ما حَمَلنا غلامنا على ظَهرِ محبوبِكَ ظَمائِ مفاصِلُهُ

والمسألة هنا ترتبط بمفهوم السرقات الشعرية قديماً وحديثاً ، لأن هذا المفهوم ليس واحداً في العصرين؛ فبينما يعدُّ النقد القديم التائر والتأثير في الشعر سرقة معيبة، ينظر إليها النقد الحديث على أنها طبيعية، بل ربما كانت عامل اغناء كبير في الشعر ؛ لأن حصيلته هذا الفن تلاقح المشاعر والمواقف والأفكار الإنسانية ، وهو لا يفترض السرقة في الشعر أبداً ، لأنه يعتبر الشاعر مسؤولاً عن كل حرف يستخدمه . وهو — على أية حال — لا ينظر الى الشعر نظرات جزئية تتوقف عند التقاء شاعرين عند كلمة أو جملة، لأن الشاعر الذي يصدر عن تجربة ذاتية حية لا بد أن يحدث شيئاً ما فيها يتأثره، وذلك ليحوِّله الى عالمه الخاص المفروض من المواقف الذاتية .

فزهير تصرّف بيت امرئ القيس تصرفاً يبدو قليلاً، لكنه إذا قرن السى السياق كله ونظر اليهما نظرة شاملة، يمكن أن يقال أن التجربة الكلية المتكاملة في القصيدة هي التي فرضت مثل هذا التصرف ؛ عندها يفسدو الشعر كله ملك زهير، يحاسب عليه ويحاكم به .

٧٨ — انظر هذين البيتين وغيرهما من الأبيات مجموعة في شرح ديوان زهير ١٥ — ١٧ المقدمة.

وأما في المجال الفني فقد أخذوا عليه اضافته (احمر) الى (عاد) في قوله :

فُتَنِّجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشَامَ كُلِّهِمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تَرْضِعُ فُتُنَّطِيمِ

قائلين : (ان ثمود لا يقال لها عاد ، لان الله عز وجل انما نسب قدارا الى ثمود) « (٧٩) كما خطأوا قوله :

يَخْرُجْنَ مِنْ شَرَابَاتٍ مَأْوَاهَا طَحْلٌ عَلَى الْجَذْوَعِ يَخْفَنُ الْغَمِّ وَالْفَرْقَا

قائلين : « ظن ان الضفادع يخرجن من الماء مخافة الفرق (٨٠) » وهذا خلاف الواقع .

انهم — كما يبدو من تقدمهم لشعره هنا — لا يفرقون كثيرا بين الصدق الحقيقي والصدق الفني . فالشاعر — فنيا — لا يتقيد بسرد الواقع كما كان وانما كما يمكن ان يكون من جهته ؛ ومن هنا لا يعيب زهير ان وضع (عاد) بدلا من (ثمود) ، لانهما في خياله ترمزان الى معنى ذهني واحد هو الشر الرابض في الأرض ؛ ومن هنا اصبحت الواحدة تعني الثانية عنده . كما لا يعيبه ايضا ان خالف المفهوم السائد في تفسير خروج الضفادع من الماء ، لانه وهو ينظم القصيدة التي منها البيت ، اراد هذا التفسير لحاجة خاصة به . فالذي يجب ان يحاسب عليه الشاعر هو مدى ارتباط الجو الذي يستحدثه بدوافعه ومواقفه ؛ اذ لا بأس حينئذ من تحويل الواقع أو استبداله بواقع جديد يخترعه خيال الشاعر وعواطفه . ان عدم وضوح هذا المفهوم في اذهان كثير من النقاد الذين درسوا زهيراً هو الذي دفعهم الى محاكمته على أساس محاكاة الواقع ، وبالمعنى الحرفي لهذه المحاكاة ، فأخطأوا في احكامهم النقدية عليه .

٧٩ — طبقات فحول الشعراء / ٧٢ والموشح / ٥٦ .

٨٠ — كتاب الصناعاتين / ٧٢ .

هذه صورة متكاملة لزهر الانسان وزهر الشاعر ، وهي صورة تحوي مضمونا واحدا هو « السمو » : فلقد كانت افكاره ومواقفه الاجتماعية تصدر عنه وتهدف الى انجازه على مستوى العصر كله؛ فبالسمو — كما عبر زهير في شعره مرارا — يعرف الانسان موقعه من الحـرب والسلام ، وبه أيضا يدرك ابعاد ايجابيته في تفاعله مع غيره ممن يؤلفون معه وحدة اسمها المجتمع المتكامل . وكان أيضا يطبق السمو في خلقه . ^{٨١} يروى أنه كان يقول : ما انا بأشعر من النابغة . (٨١) ويروى أيضا أنه كان محبوبا ومحترما ممن عرفه (٨٢) . كما كانت مناهجه في الابداع الفني تتصف بالسمو أيضا ، فاذا وعينا أن السمو الفني يعني النتيجة التي يتوصل اليها شاعر يجتهد في تعمق تجربته واتقان وسائله حتى تخرج، حسين تخرج ، وهي صاعدة الى قمم الابداع ومتجاوزة كل ما قد يسمها بالابتذال والسوقية ، أدركنا كم كان حظ زهير من السمو الفني عظيما .

ان احساسنا بصفة السمو في شعره فكرا وفنا هو الذي دفنني لاطلاق لقب (شاعر السمو) عليه ؟ فزهير شاعر متميز باخلاصه لعصره واخلاصه لشعره ، لذا فهو ما زال بحاجة منا الى دراسة جديدة واعية هادفة تستقصي شعره وتستخرج منه كنوزه الثمينة .

د . عبد القادر الرباعي

٨١ - شرح ديوان زهير / ٢٢٦

٨٢ - خزائن الادب / ٤ / ١٥٠ وذييل الامالي / ٢٣ وديوان كعب بن زهير / ٢٦